المعالجة السينمائية
لقصص غسان كنفاني

المخدوعون مستوى والسكين مستوى آخر

لقطة من « المخدوعون »

« المخدوعون » (عام ١٩٧٢) المقتبس عن قصة غسان الطويلة « رجال في الشمس » عن انه لم يلاق عناء خاصا في تحويل هذا العمل الادبي الى سيناريو سينمائي ، بسبب من خاصية القصة القريبة من طريقة السرد السينمائية القائمة اساسا على التعبير بواسطة العنصر المرئي ، اي الصورة ، وربط حتى عنصر الصوت بالصورة • فلنرى مثالا على ذلك كيف يفتتح غسان كنفاني « رجال في الشمس » : اراح ابو قيس صدره فوق التراب الندي ، فبدأت تخفق ممن تحته : ضربات قلب متعب تطوف في ذرات الرمل مرتجة ثم تعبر الى خلاياه •• في كل مرة يرمي بصدره فوق التراب يحس ذلك الوجيب كأنما قلب الارض ما زال ، منذ ان استلقى هناك اول مرة ، يشق طريقا قاسيا الى النور قادما من اعمق اعماق الجحيم ، حينما قال ذلك مرة لجاره الذي كان يشاطره الحقل ، هناك في الارض التي تركها منذ عشر سنوات ، اجابه ساخرا :

« هذا صوت قلبك انت تسمعه حين تلصق صدرك بالارض » اي هراء خبيث : والرائحة اذن ؟ تلك التي اذا تنشقها ماجت في جبينه ثم انهالت مهمومة في عروقه ؟ كلما تنفس رائحة الارض وهو مستلق فوقها خيل اليه انه يشم شعر زوجته حين تخرج من الحمام وقد اغتسلت بالماء البارد ,,, الرائحة اياها ، رائحة امرأة اغتسلت بالماء البارد وفرشت شعرها فوق وجهه وهو لم يزل رطيبا ••••• الخفقان ذاته : كأنك تحمل بين كفيك الحانيتين عصفورا صغيرا »••

الذي شاهد فيلم « المخدوعون » يذكر بلا شك ، ان هذا المقطع الادبي قد تجسد في الفيلم بنفس الدقة والتسلسل • وما كان بالامكان كتابة سيناريو سينمائي عن هذا المشهد بأفضل مما كتبه غسان ، حيث رائحة ارض فلسطين تتحول الى امرأة فرشت شعرها فوق وجه الحبيب ، وحيث الارض تخفق مثل القلب ، وحيث الماضي يختلط بالحاضر ويعيش فيه ، وحيث الرمز المكثف يتبدى من خلال اكثر الصورة حياتية وواقعية •

ما الذي وجده السينمائيون في غسان كنفاني ؟ لقد اعطت اعماله الادبية لمخرجي السينما ، الموضوع الفلسطيني المعاصر ، وهو الموضوع الذي كان يخفق في قلوبهم بعد هزيمة حزيران ، كما اعطتهم هذه الصورة الفنية والتفصيلية للحياة الفلسطينية ، الممزوجة برؤية شعرية فنية مجازية اعطتهم الحرية في التعامل مع الزمن وفي وصف الاحداث •

في « رجال في الشمس » وفي فيلم « المخدوعون » الواقعية والرمز توأمان يسيران جنبا الى جنب باتجاه توضيح الفكرة السياسية التعبوية الواضحة الهدف والمعاصرة • وحيث نجح توفيق صالح في الحفاظ على هذين التوأمين ، فشل المخرج خالد حمادة ، اذ حول رواية « ما تبقى لكم » الى فيلم «السكين» (عام ١٩٧١) • والفشل كان نتيجة عدم المقدرة على التقاط الرمز الخارج من اشد الصور واقعية • فلم يقدم الفيلم الا الجانب المباشر من صور « ما تبقى لكم » الواقعية ـ بينما الرواية كانت تسمح بمعالجة سينمائية غنية تربط في تفاعل متبادل بين الاشخاص والاشياء والاحداث ، وتقدم ابعادا سياسية ونفسية واجتماعية وجمالية لقضية الانسان الفلسطيني الباحث عن هويته •

و « المخدوعون » و « السكين » هما الفيلمان الوحيدان اللذان انجزا عن قصص غسان كنفاني • وهناك اعمال لم تنجز لظروف ما • من هذه الاعمال معالجة سينمائية لقصة « الاعمى والاطرش » اعد السيناريو قاسم حول ، وكان من المفترض ان يتم انتاجها بشكل مشترك بين الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وبين مؤسسة السينما العراقية • كما كانت هناك محاولة عند احد المخرجين لم تتم لكتابة سيناريو عن قصة غسان « عائد الى حيفا » • ومن المؤسف انه لم يتم اخراج قصص غسان هذه ، ومن المؤسف ايضا ان رواية « أم سعد » لم تصبح فيلما ، فالسينما العربية هي الخاسرة في مثل هذه الحالة •

بعد استشهاده اصبح غسان كنفاني موضوعا لفيلم تسجيلي عنوانه « غسان كنفاني ـ الكلمة البندقية » • آخر الفيلم قاسم حول ضمن انتاج للجبهة الشعبية تضمن معلومات واضحة عن حياة وادب ولوحات غسان ، كما تضمن مقاطع من فيلمي « المخدوعون » و « السكين » • وقد لجأ المخرج الى قراءة النص الادبي الذي اقتبس عنه كل مقطع سينمائي تم عرضه في الفيلم التسجيلي ، في محاولة لاثبات هذه الصلة الوثيقة بين السرد الادبي عند غسان وطريقة السرد السينمائي •

عدنان مدانات

عن « الكفاح العربي »

ـ « عندما جاء نيسان ، اخذت الارض تتضرج بزهر البرقوق الاحمر وكأنها بدن رجل شاسع مثقب بالرصاص » •

لو ابتدأ فيلم ما بمشهد كهذا ، لكان الجمهور قد اخذ بسحر هذه الصورة الشعرية الى ابعد الحدود ، الواقعية الى ابعد الحدود ، والجمالية التشكيلية السينمائية الساحرة • لا يوجد فيلم له مثل هذه البداية ، بل توجد رواية غير مكتملة ، غير منتهية ، هي « برقوق نيسان » للكاتب الشهيد غسان كنفاني •

كتب غسان كنفاني عددا وافرا من القصص القصيرة والطويلة وبالنسبة لقصصه الطويلة ، فان غسان لم ينه الكثير منها • ربما كان الموت اسرع منه فلم يمهله الوقت الكافي لانهائها • لكن الموت كان مناسبة لكي يكتشف النقاد وجمهور قراء الادب ، ان كاتبا كبيرا كان ، وانه في حياته لم ينل التقدير الادبي الحقيقي •

لقد اكتشفت السينما غسان كنفاني الاديب قبل ان يكتشفه عالم الادب ويضعه في مكانه الصحيح • لقد ظهرت المجموعة الكاملة لقصصه بعد موته فقط • واما الدراسات التي بدأت تهتم بأدبه بجدية ، فقد بدأت تنشر منذ فترة ليست بالبعيدة •

اكتشفت السينما غسان كنفاني في حياته ، اكتشفته مناضلا فلسطينيا واديبا مبدعا ذا رؤية سينمائية واضحة تبرز من خلال قصصه المختلفة •

في حينه ، تحدث المخرج السينمائي توفيق صالح ، وهو مخرج فيلم

غسّان... جيل ثوري بكامله

بقلم : صالح زهر الدين

« غسان .. الانسان الرمز »

احببته قبل ان اتعرف اليه •

احببته قبل ان اعرف اسمه الحقيقي وقبل ان ارى شخصه •

في البداية ، كان حبي لـ « فارس فارس » ، وسرعان ما كبر حبي لهذا الاسم ، واصبحت نظرتي لواقعنا العربي تتجسد اكثر واكثر بعد كل قراءة لمقالة او خبر او خاطرة تحمل هذا الاسم ، ولكنها غاصت في الاعماق ، دخلت في تفاصيل الحروف والكلمات والاسطر والصفحات بعد ان برز اسم « غسان كنفاني » كرئيس تحرير لمجلة « الهدف » ، الناطقة بلسان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، ••• وصاحب امتيازها ايضا •

وفي شهر كانون الاول ١٩٦٩ ، كان لقائي الاول معه ، مع ذلك الجيل الثوري الذي كان يمثله كنفاني حقا •

وتتابعت اللقاءات لتعطي النتيجة الحقيقية التالية : انسان قبل كل شيء •• مناضل ، ثائر ، وصورة حقيقية للقضية العربية ، بدون رتوش او ماكياج •

انه المارد العربي الحقيقي الذي خرج من « قمقم » القضية ليجسد بكل اخلاص آمال شعبه وطموحاته ، وليلعب الدور الكبير في تاريخ هذه الامة التي احببته وكان لها مخلصا وامينا •

« غسان ••• شعلة مضيئة »

احس بالمرارة والاضطهاد ، عانى مرارة التشريد والذل والحرمان ، عاش كابوس البعد عن الوطن والارض ، رأى بأم عينيه دسائس الحوتة والعملاء ، ومؤامرات الاعداء القوميين والطبقيين ، خبر الملاحقات التي تعرض لها شعبه في مخيمات البؤس والشقاء ، رأى المتسلطين والجبناء وهم يزجون برفاقه وابناء شعبه في السجون ، وبدون سبب ايضا • من هنا ، عشق الارض فعشقته • عشق الشعب فاحتضنه • احب القضية وعمل لها ، فكبر بها وكبرت به ، واصبحا توأمين متلازمين ، الواحد منهما مكمل للآخر •

والرفاق يتابعون الطريق بكل عزم وتصميم مسترشدين بتراثه ، مكملين الرسالة للوفاء له وللقضيته • ومدرسة مبادئه وافكاره لا زالت تخرج المزيد من المناضلين والثوار لاكمال الطريق الذي خطه بدمائه • وكان من الرواد الاوائل الذين كتبوا بالدم لفلسطين ، للثورة العربية ، وللقضية العربية • وامثاله ، امثال هكذا نبراس ، لا يمكن ان يخبو زيته ، وتنطفىء شعلته ، فهو في عطاء مستمر متزايد •

« غسان ••• ثائر مقاتل »

شعر بأن الثورة هي التي تصنع الانتصار وتحقق المعجزات ، والاستسلام مزيد من الذل والركوع على اعتاب المتآمرين والاعداء • وعندما رأى موجة الاستسلام مرتدية ثوب « الحل السلمي » ومتجهة نحو المنطقة العربية ، كان من الاوائل الذين تصدوا لهذه الموجة بالكلمة الحرة الشجاعة الداعية للكفاح المسلح وحرب الشعب ، طريقا وحيدا للوصول الى فلسطين الشعب والارض والقضية • كان يعلم ان الصمت حيال ما يخيم على المنطقة بحجم المؤامرة عينها ، فانبرى متصديا بكل ما يملك من جرأة وشجاعة واخلاص • وكانت كلماته بحجم الرصاصة والقذيفة واكبر من المؤامرة بكثير لما كان لها من وقع وتأثير في نفوس من كان يهمهم الامر •

دعا الى الكفاح والقتال ، وهاجم اليأس والاستسلام والمستسلمين ، قائلا « رجال في الشمس » يحملون البنادق ، يشعرون بالام الذل والحرمان ، يدافعون عن حقهم في العيش كبشر يستحقون الحياة وجديرين بها ، فهؤلاء الرجال جديرون بالاهتمام ، ودماؤهم ملك للقضية ، ولا مجال للمساومة على هذه الدماء • « رجال في الشمس » بل هم الشمس كلها ، العالم كله من ولهم من الاهمية الشيء الكثير • فهؤلاء الرجال هم مصدر القوة ، ولا يجب التخلي عنهم •

« غسان ••• الوفي المخلص »

شرد من ارضه ووطنه مع من شردوا ، ولكنه مثلهم صمم على العودة بأية طريقة كانت ، مرفوع الجبين موفور الكرامة •

وحقق طموحه ••• وعاد الى حيفا ، الى فلسطين العربية ، وكما كان يتمنى بل اكثر • لم يرحل بدون كلام ، بل قال لرفاقه بكل شجاعة ها أنذا « عائد الى حيفا » ••• انتظركم هناك بفارغ الصبر ، تماما كما انتظر تراب فلسطين العربي قدوم صلاح الدين طاردا الغزاة الصليبيين الذين دنسوا الارض وهللوا المحرمات ، انتظركم تحملون البندقية المقاتلة لطرد العدو الذي دنس الارض وهتك المحرمات ، لان هذا العدو لا يعرف لغة الا لغة العنف ، وعنفنا الثوري المنظم هو الرد الوحيد على عنفه الفاشي •

لا تحملوا غصن الزيتون في الدخول الى فلسطين المحتلة ••• فسياسة غصن الزيتون هي التي افقدتنا كامل الوطن وشردت معظم شعبنا • فقد تهزأ بنا عندما نذهب اليها تحت راية اغصان ، حبلى أرضها بشجراتها وثمراتها ، وتخجل الاغصان من جديد وتنحني الى الارض مستنكرة عودة ابنائها بهذه الطريقة •

ولكنها تحتضننا بين اغصانها وتعانقنا معانقة الاحباء عندما نصل اليها تحت راية البندقية والكفاح المسلح لنرفع اغصانها هناك ونسير تحت رايتها بعد التخلص من اعداء الانسانية في بلد المحبة والسلم والعدالة • فصراعنا مع العدو الصهيوني هو صراع على الوجود وليس على الحدود ••• والبندقية هي التي تكرس وجودنا كبشر نستحق الحياة ، وعلى هذا الاساس يجب ان يتم صراعنا معه •

« غسان ••• الصاعق المفجر »

وفي الثامن من تموز ١٩٧٢ ، كانت الولادة الجديدة • ولادة جديدة في ضمير الشعب والوطن والقضية ، وفي قلب كل وطني مخلص وعربي صميم وكل مطالب بالحرية •

فجروه ، ليحققوا اهدافهم التآمرية بعد ان ساهم في افشال معظمها • وسرعان ما وجدوا انفسهم واهمين ، لانهم فشلوا باستشهاده ، تماما كما فشلوا في حياته • وكان انفجار الكلمة التي اطلقها غسان اقوى بكثير من كميه المتفجرات التي وضعوها لاغتياله ، وتحولت نقاط دمه الى انهر غزيرة تجري في شرايين الوطن العربي لتصب في فلسطين ، وفي الارض العربية المحتلة كلها •

وانكشفت امام العالم حقيقة واضحة ابرزها استشهاد غسان : جبناء ، عملاء ، متآمرون ، متسكعون على اعتاب الامبريالية ، يلعقون فتات موائدها وفضلاتها بألسنتهم العابقة بروائح النفط المكرر في مصفاة امريكا واسرائيل ، وموقعون وثيقة الذل والتخاذل ببصمة الحبر الامريكي والفطرسة العنصرية ، ممهورة بحاتم الانفتاح على العالم الاخر •• عالم العملاء والجواسيس والفطرسة الصهيونية • عجزوا عن مقارعة عقله وحكمته بالعقل والحكمة فلجأوا للمتفجرات وسيلة لوضع حد للحكمة والعقل ، اصابت منه مقتلا ، فتطاير اشلاء واجزاء وستفا يوزع في بقاع العالم الثائر فلسفة العقل وعظمة حكمته ، وطالما هناك اناس يحترمون العقل ويقدسون حكمته ، فالعقل والحكمة مستمران في الوجود الى ان تفنى البشرية وتنعدم الحياة • واخيرا •• تحية لك يا غسان في ذكراك السادسة ، تحية الى من كان جيلا ثوريا بكامله • ونعاهدك ان نبقى اوفياء لدمك ولقضيتك ، حتى النصر او الاستشهاد •